لقاء

يتحدّث الفنان الغزّي، في لقائه مع «العربي الجديد»، عن أدوار الفنّ في المقاومة، واتجاهه لكتابة نصوص يجد فيها مساحة تعبيرية تفرضها لحظة الإبادة، وكذلك عن مسرحية «مترو غزّة» للمُخرج الفرنسي هيرفي لواشمول، التي لا تزال تُعرض حتى اليوم، وهي مستوحاة من عمل تركيبي متعدّد الوسائط نفذّه منذ سنوات

أدوار الفنّ في المقاومة

محمد أبو سل
يوميات الإبادة بحبرٍ على ورق

محمود منير

عبر حسابه على فيسبوك، أعاد الفنان الغزّي محمد أبو سل، مؤخّراً، نشر صورة «منزل العائلة والمرسم والحديقة وكلّ المحتويات والذكريات» التي حوّلها الاحتلال إلى رُكام، وعنون الصورة المنشورة بـ«الفقد الكبير»، ثمّ وثّق في فيديو آخر تفاصيل ما حدث في البريج، وسط قطاع غزّة، في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 2023، وكتب: «حبُّنا بحجّة أنّنا «مش قدّهم»: أنّ الكفّ لا تناطح المخرز، وأنّ بلاغة الكفاح البشري كلّها لا تصمد أمام «الإف 35».

هذا حكيٌ مسمومٌ طبعاً، ولو مشت عليه شعوب الكوكب المضطهدة لما تحرّرت أبداً. ثُمّ أين تفاؤل الإرادة حين يتشاءم العقل الماديّ؟ أين النسغ الوهّاج في الأمم أمام مصاصي دمائها ولصوص خيرتها؟ وأين نصف الكوب الممتلئ؟ أين الحيوان الذي يدافع عن وكره؟ أين الدخان الموجود في كلّ عود، مهما بدا نحيفاً وهشّاً؟ وأين النصر طويل الأمد بالنقاط؟ أين الجولة تعقبها جولة، والرابح مالكُ النفَس الطويل؟

إنّ أعظم ما في خلق الله من جميع الكائنات الحيّة، قدرتها على الدفاع عن نفسها، مهما ضؤل جرمُها، بما وهبها الله من خواصّ وإمكانات.

لن نيأس ولن نرفع راية الاستسلام، وسنظلّ نركن إلى إرثنا النضالي ابناً عن أب وجدّ: جيلٌ يمضي، وجيلٌ يأتي، وتبقى الشعلة في الريح، راية الذاهبين إلى شمسهم، طال المظلم أم طال أكثر.

(شاعر فلسطيني مقيم في بلجيكا)

تصويب

شعلةٌ في الريح

باسم النبريص

والمحاسبة ودبلوم التصميم، لـ«العربي الجديد»، عن أدوار الفنّ في مقاومة العدوّ، وعن نصوصه، وكذلك عن مسرحية «مترو غزّة» للمخرج الفرنسي هيرفي لواشمول التي لا تزال تُعرض، والمستوحاة من عمل تركيبي متعدّد الوسائط نفذّه أبو سل منذ سنوات. عن تأثير الإبادة على أدوات الفنان ومخيّلته ورؤيته، يقول: «اعتدتُ الاستلهام من القضايا المعاصرة التي أعايشها، خاصّة الأزمات التي عكست مفاهيم ترويض الإنسان وإجباره على منهجية تدبُّر الأمر في شتّى شؤون حياته. التصعيدات العسكرية المعتادة كانت مُلهماً أساسياً لي. لكن هذه المرّة، لم يكن تصعيداً كما تعوّدنا، بل إبادة جماعية بكل ما تحمله من وحشية وتفاصيل تفوق الإدراك، ومنذ لحظاتها الأولى كانت واضحة وطاولت كلّ شيء بلا استثناء، كموج تسونامي نراه يقترب، أدركت حقّاً أنّها ستنال من أجسادنا وأحلامنا وكلّ إرث صنعناه لمستقبلنا».

ويضيف: «اعتدتُ تسجيل كلّ ما يخطر ببالي من أفكار وخطط لإنتاج مشروع فنّي ما. حاولتُ فعل ذلك هذه المرّة، ولكنني فشلتُ، لأنه لا يمكن قراءة المشاهد المهولة فنّياً إلّا في حالات الاستقرار الذهني والجسدي. شطبتُ ما قمت بتسجيله من يوميات وأفكار، في قرار لإعادة قراءة المشاهد من حولي. تحوّلت من فنان إلى نازح مكتوف الحواس كباقي الناس، يحترق يومي كغيري في تدبّر أمور الحياة من ماء وطعام وملبس ودواء، وتدور الأيام في تكرار رتيب؛ تكرار مخيف يحذوه التآكل والعجز. بعد سماع خبر قصف منزلي ومرسمي واحتراق كلّ أعمالي وأرشيفاتي وتدويناتي، وقع عليّ ما هو أشدّ من الصدمة، كيف لكلّ هذا أن يندثر أو يختفي؟ قدر كبير من الاستباحة خلال الإبادة المستمرّة على غزّة».

حول تلك الخيمة «متعدّدة الاستخدامات» والأكفان في «مستشفى شهداء الأقصى» بدير البلح، وحشود النازحين في رسوماته الأخيرة، يُبيّن أبو سل أنّه «من شدّة تأثير المشاهد القاسية المتكرّرة، والتي أصبحت نمط حياة، كان لزاماً التخفيف من هذا الكمّ المتراكم من المشاهد وآثارها، فلجأتُ إلى الفضفضة والبوح على الورق، وقمت بتسجيل يوميات النزوح من كتابات ورسومات بالحبر على الورق، لعلّها تخفّف من ألم كبْت تلك المشاعر المُخبّأة، تلك الرسومات صاحبتها تفسيراتٌ لسياقات جديدة عمّا تعوّدته أبصارنا ومسامعُنا». ومن تلك الكتابات ما سجّله مع رسم الخيمة: «هذا ليس ديكوراً أو عمارة جميلة؛ بل هو الألم الممزوج بالراحة الزائفة. تدبّر الأمر من أجل البقاء والأرض. لمقاومة الإبادة في قطاع غزّة».

وعن «مستشفى شهداء الأقصى»، كتب: «هذا الاصطفاف غير الرتيب؛ هو آخر لحظة تبصرها العين لمحو العائلات من السجلّ المدني، أمٌّ يعتلي جثمانُها طفلُها، وأخوان، وجدٌّ مع أبنائه وكلّ أحفاده ورضيع. من ذاكرة مستشفى شهداء الأقصى في دير البلح». وإلى جوار رسومات لأكفان يُدوّن: «المشهد الأخير لأبطال فيلم شاهده كلّ العالم، أدّوا أدوارهم بكلّ كفاءة حسب رغبات المخرجين وكتبة السيناريو، يُغادر المشهد كلّ يوم مئة بطل، جلّهم من الأطفال البارعين، ويحلّ محلّهم مئة آخرون بل ويزيد، وتستمرّ المشاهد حتى تشبع رغبات الشياطين». من جهة أُخرى، ينظر أبو سل إلى عرض «مترو غزّة» للمخرج الفرنسي هيرفي لواشمول بأنّه حالة تواصل مع القطاع، لـ«يكون المسرح هو الجسر بين مكانين فصلَهما الاحتلال والسياسة. يبدأ العرض بحُلم فتاة كانت نائمة على مقاعد تشبه مقاعد القطار أخذها المترو من جنين إلى غزّة لتبدأ من هناك أحداث المسرحية، والعرض يقدّمه «مسرح الحرية» في مخيّم جنين عن قصص وأحاديث افتراضية لرُكّاب رحلة على متن مترو خيالي في منطقة وهمية تحت الأرض بقطاع غزّة، والتي ستكون المادة الأساسية للعمل».

وقد استُوحيتْ قصة المسرحية من عمل تركيبي متعدّد الوسائط للفنّان، وهو يعبّر عن حلّ بصري مؤقّت وحالم لتغيير حالة أزمة التنقّل داخل قطاع غزّة وخارجه من خلال افتراض وسيلة مواصلات متطوّرة (قطار المترو) بشكل بصري، عن طريق التدخّل بجغرافية وتاريخ القطاع من خلال عمل فنّي يربط زمن قطار الحجاز واستحكامه بصورة فوتوغرافية وتفاعل للمشاهدين مع مجسّمات وتصاميم متعدّدة.

يتابع أبو سل: «على أساس أنّ أهل غزّة أصبح لديهم خبرة ولو بسيطة في حفر الأنفاق، واستكمالاً لحالات الحلم التي يعيشونها... فهنا حلم آخر ولكن بمقترح فنّي. تكمن أهمية عرض المشروع في إعادة ربط أوصال المدن الفلسطينية، والاعتراض على تفكيك خريطة فلسطين التي يعمد الاحتلال إلى الاستمرار في تجزئتها من خلال احتلال أكثر للأراضي وتهجير أهلها وإقامة المستوطنات عليها».

تُلقي اللحظة الراهنة ثقلها على مجمل الحديث مع محمد أبو سل، الذي يُشير إلى أنّ «هذه الإبادة تخلق العديد من الأسئلة، وربما تجعلنا في حيرة وجدل، لأنّنا نجزم بألّا أحد سيجيب عن تلك الأسئلة، بل نحن من يقع على عاتقه أن يختلق الإجابات، لأنّنا من مُورست بحقّه الإبادة الجماعية. كنتُ كثير التأمّل والملاحظة على كلّ ما استجدّ في حياتنا حيث تُنفّذ الإبادة بحذافيرها وبكلّ ما تتطلبه كي تتحقّق، فكانت تفاصيلها على مرأى أعين العالم، وباتت وكأنّها أمرٌ أو قدرٌ لا مفرّ منه... حتى وجدتُ نفسي أقرأ أدب الإبادة».

> الرسم والكتابة للتخفيف من شدّة تأثير المَشاهد القاسية
>
> دمّر العدوان أعمالي التي أنجزتُها على مدار ثلاثة عقود

باتت الكتابة أيضاً حاضرة بعدما تطابقت اللوحة مع الواقع، حيث يبثّ الفنان تأمّلاته ومشاعره في نصوص عدّة، منها نصّ يقول فيه: «أن تُغتال في شغفك، وفي حُبّك للطبيعة، وفي صنعك للجمال! لا أستطيع الاستفاقة من هذه الصدمة، ولا أستطيع تحديد حجم قذارة هذا الاحتلال. أستذكر حديقتي، وسطح المنزل المقصوف كلّياً خلال إبادة قطاع غزّة، فكيف لهذا الشغف أن يُنتزع منّي، أن تُغتال في تاريخك، عندما تفقد أرشيف إنجازاتك ومذكّراتك، حتى الأعمال التي كانت على موعد مع التوثيق ستبقى فقط في ذاكراتنا الشفوية. أستذكر كلّ لحظة أعمالي التي أنجزتُها على مدار ثلاثة عقود، حين وجدت أثاراً منها وقد احترقت وتلفت كلّياً».

محمد أبو سل في مرسمه بغزّة، 2019

بطاقة

وُلد محمد أبو سل في مخيم البريج بغزّة عام 1976 لعائلة هُجّرت من قرية عراق المنشية بعد النكبة. حاز درجة البكالوريوس في الإدارة والمحاسبة سنة 1999، ودبلوم تصميم الويب من «جامعة ماكروميديا» الأميركية، وتلقّى تدريبا على يد الفنان السوري الراحل مروان قصاب باشي في «دارة الفنون» بعمّان، ودورات في الفنون وتقنيات الطباعة، وفنّ التجهيز، والتصوير الفوتوغرافي. شارك في معارض عدّة في نيويورك وباريس والقدس.

إطلالة

عصر اللاجئ

ممدوح عزام

يختتم حنا مينه روايته « الثلج يأتي من النافذة» بوقوف فياض، بطل الرواية الذي اضطرّ لمغادرة بلده خوفاً من الاعتقال، أو التعذيب، أو السجن الطويل، أو التصفية، والبقاء بعيداً عنه بضع سنوات، في لبنان، حيث عمل مُتخفّياً بأسماء عديدة، في انتظار لحظة العودة.

ولكن فياض يقرّر أخيراً العودة إلى سورية، بسبب إحساسه بأنّ حياته باتت بلا معنى، وأنّ شعوره بالبرد لا يأتي من النافذة المفتوحة، حين كانت تُثلج خارجاً، فـ«البرد ليس من الثلج، البرد ليس من الثلج»، يردّد فياض لنفسه، ولنا نحن القرّاء، سبع مرّات هذه الجملة، بلا توقّف، كي يُوصل إلينا الرسالة التي تقول إنّ البرد لم يعد برداً تسبّبه الأجواء الباردة، بل هو برد رمزيٌّ ناجمٌ عن الغربة التي طالت بالمناضل الفار من بلاده.

وما هو الحل إذاً؟ إنّه العودة، ومنذ أن تطأ قدماه أرض بلاده، يبدأ البطل في إطلاق ما يُشبه النشيد قائلاً: سلاماً يا أرضي، ثمّ ينتهي إلى القول، مُقدّماً وعداً قاطعاً لأرضه، ومدينته دمشق: أبداً لن أهرب بعد الآن. أبداً لن أهرب بعد الآن. المفارقة التي وضعها الروائي في هذه النهاية الرومانسية هي أنّ الأسباب التي أدّت بفياض إلى الهرب من بلاده لم تتغيّر، لا في الزمن الذي هرب فيه من البلاد، أي زمن أحداث الرواية، في الخمسينيات من القرن الماضي، حين قرّر أن يعود إلى بلاده مصحوباً بذلك النشيد الغزلي، ولا في الزمن الذي نُشرت فيه الرواية، أي عام 1969.

إنّ خيار العودة في هذه الحالة انتحاريٌّ، خاصّة أنّ الزمن العربي التالي، لم يُفض بتاتاً إلّا إلى مزيد من الأسباب التي أرغمت الآلاف في البداية، ثم مئات الآلاف، ثم الملايين من العرب، على مغادرة بلدانهم، هرباً من الأسباب ذاتها التي أرغمت فياض في رواية حنا مينه على الهرب. كأنّ الزمن العربي، في السنوات الستّين الماضية، بل في كلّ السنوات التي أعقبت استقلال دولنا، لم يزد عن أن يكون زمن النفي والطرد والمنفيّين. المفارقة الأُخرى هي أنّ الروائي يضعنا أمام سؤال محيّر: هل كتبَ الرواية من أجل هذه الخاتمة؟ هذا إجراءٌ غير منطقي، فالرواية بمجملها تُدين القمع، والمطاردة البوليسية، بحيث تبدو الخاتمة مقحمةً في ذيلها بلا سبب منطقي مقنع غير حنين البطل الروائي؛ وهو حنينٌ مجرّب وإنساني إلى حدّ بعيد، وغير إرادة الكاتب.

يمتلئ المنفى العالمي بأسماء الكتّاب الذين طُردوا من بلادهم، منذ أيام الشاعر الروماني أوفيد الذي نفاه الإمبراطور، إلى اليوم، وربّما كان القرن العشرون الشاهد الأكبر على موجات هائلة من المنفيّين في معظم بلدان العالم، حتّى أطلق عليه إدوارد سعيد في كتابه «تأمّلات في المنفى» اسم «عصر اللاجئ»، حيث يقول: «إنّه الشرخ المفروض الذي لا التئام له بين كائن بشري ومكانه الأصلي». ولعلّ لدى كلّ منفيّ أو لاجئ الرغبة في القيام بعودة مماثلة لعودة فياض. لولا ما يتجاهله فياض، أو الروائي الذي كتب رواية «الثلج يأتي من النافذة»، وهو أسباب النفي التي لا تني تتكرّر في كلّ هذا العالم العجيب.

(روائي من سورية)

نبدأ فصلاً جديداً ونعجز عن إجابة أطفالنا

على أهبة النزوح

محمد أبو سل

حبال المقاصل ذائبة
ونحن قرابين هذا القرن
نمرّ على المقصولين كلّ ليل
ونودّعهم تالي النهار
ثمّ نُكمل باقي اليوم
ننقاد لطوابير الخبز والماء
يجمع أحدهم أرقام الهويات
يغيب ثم نُدركه على بسطة
يبيعنا طعامنا وطرودنا

لا تكاد سيقاننا تحملنا
ونحن غرباء الخيام والمدارس
طالت وتجاوزت طاقاتنا
ولا زال يخطفنا سادة الكذب
ضللنا بوصلة الوقت
فمررنا بشتاء ثمّ صيف

وتبعثرت الأيام في صمت المآذن
كما ابتُلينا بماهية الأماكن
على أهبة النزوح حسب الأوامر
متاعنا عزيز علينا..
الفراش والغالون
الطحين والشوادر
البطّارية والمعلّبات.

■ ■ ■

نعيش في كابوس
تتقاطع مسارات القذائف
ونمرّ من تحتها ولا نابه
نستودع أنفسنا وأهلينا
أحزمة نارية كأهوال الواقعة
توقّف نبض القلوب.

■ ■ ■

ثمّ نبدأ فصلاً جديداً
ونعجز عن إجابة أطفالنا
من ولمَ وكيف ولماذا؟
نُقابل في النزوح كلّ المعارف

نطرف بالتحية وترتدّ أعيننا إلى الأرض
غابت المناصب والمراتب
ذلّ العزيز... وتعالى اللصوص
تلوّن المشهد القديم
حلّاق على الطريق
عربات الدواب حلّت من جديد
غابت الكهرباء وحضرت الخلايا
ندور حول المدفع والبحر والعلم والطيارة.

■ ■ ■

ثم نستفيق نتابع الأخبار
فارق المتضامنون الميادين
وضجر الأنام من حكاويتنا
سنبقى وحدنا

ووقع علينا قضاء الربّ
نواجه شرّ أنفسنا وشرّ العالم
إمّا البقاء في الإبادة
أو الاستباحة من جار السوء
شُلّت كلّ المرافق
وأصبحنا نشبه بعضنا
في الملامح والهموم
ندفع أثماناً كبيرة
ندين لبعضنا بعزاءات كثيرة
ثم نُحبط من جديد.

■ ■ ■

نصطفّ ننتظر نُحبَنا حول نفس المقاصل
تعتصر قلوبُنا ونجرّم أنفسنا
ونقضي عاماً في النزوح
أدركنا أنّها تصفية للجميع

وأنّنا تحت احتلالات كثيرة
تنوب عن المحتلّ الرئيس
أماتوا إنسانيتنا
فلم نعُد نعلم الواجب ولا الحقوق
فأصبحنا مروّضين للمقاصل
متى ينتهي هذا الفصل؟
وهل سنحظى بفصل جديد؟

(26 آذار/ مارس 2024، أماكن النزوح وسط قطاع غزّة)

عمل فني لـ محمد أبو سل

فعاليات

من قلبي حروف لبيروت عنوان الدورة الخامسة من «معرض العراق الدولي للكتاب»، التي تُقام بين الرابع والرابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر المُقبل على أرض «معرض بغداد الدولي»، بمشاركة أكثر من أربعمئة دار نشر عربية وأجنبية. تتضمّن التظاهرة برنامجاً ثقافياً يشمل أمسيات شعرية وندوات فكرية وورشات مختلفة.

تحت شعار **الكتاب جسر بين الثقافات**، يُنظّم «المرصد الآشوري لحقوق الإنسان» بالتعاون مع «جمعية الناشرين العرب» في السويد، فعاليات الدورة الأولى من **معرض نورشوبينغ للكتاب**، الذي يُقام في المدينة السويدية بدءاً من التاسع والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري حتى مطلع الشهر المُقبل، ويُشارك في التظاهرة أكثر من مئة دار نشر.

في تذكُّر إلياس خوري عنوان حوارية تُنظّمها «شبكة فبراير» في مكتبها ببرلين عند السادسة من مساء الجمعة، الثاني والعشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري، في محاولة لاستذكار إرث الروائي اللبناني الراحل، وإضاءة منجزه الفكري والسياسي. يتحدث في الندوة: **همّت الزعبي** و**رشا عباس** و**زياد ماجد** و**ياسين الحاج صالح**.

يُناقش المترجم والكاتب المصري **باسم عبد الحليم**، عند السادسة من مساء اليوم الجمعة، المجموعة القصصية **توقيت غير مناسب لشراء السمك** للكاتبة الجزائرية غزلان توابتي، الصادرة حديثاً عن «دار هُنّ للنشر والتوزيع». يُقام اللقاء افتراضياً ويُبثّ عبر حسابات الدار على وسائل التواصل الاجتماعي.